إنتقام

آمنه العثمان

obeikan.com

obeikan.com

ما أجملكِ عندما تزرعين في قلبي الفرح والسعادة والبهجة.

ما أروعك أمي بلمستك الحانية على رأسي، وقُبَلكِ تنثرينها ياسمينًا على وجهي.

كنت أشبهك كأنني نسختك؛ فأنا شقية مثلكِ، عنيدة، شجاعة، أحب التحدي والمغامرة، كما أخبرني والدي عنكِ.

كنت تحلمين بيومٍ أرتدي فيه فستاني الأبيض وأجد شريك حياتي الذي يحبني كعشق والدي لكِ، وتتمنين أن أكمل دراستي بالحقوق لأكمل حلمك الذي لم يتحقق.

لم أنسَ تلك القُبلة الحانية على جبيني، ومسحة أناملك الرقيقة لشعري ذاك الصباح، وقولك لي: حبيبتي انتبهي لنفسك عين الله تحرسك وترعاك، قلبي معك يا نور عيوني.

هكذا في كل صباح تمنحني أمي دعاءً؛ ينير طريقي ويحميني من رفاق السوء..

كنا ثلاثة أخوة، أنا آية الصغرى المدللة في السنة الأولى حقوق، وأخي الكبير هيثم حاصل على بكالوريوس تجارة، يعمل بشركة والدي

بالاستيراد والتصدير، وأخي الأوسط حسام يكبرني بسنة في كلية الفنون، كان والدي تاجرًا ومعروفًا من قبل الكثيرين، وتملك عائلتنا سمعة بيضاء ناصعة.

في أحد الأيام ودعتني أمي بقبلة ودعاء، ورافقتني صديقتي سعاد للجامعة، تعرفت عليها منذ مدةٍ قصيرة، كنت أود المشي للجامعة والاستمتاع برؤية المارة واستنشاق عطر الياسمين الدمشقي ونحن نتحدث سويًا، إلا أنها كانت مختلفة ذاك اليوم؛ فاستوقفت سيارة أجرة كي لا تتأخر عن محاضرتها في قسم الترجمة، طاوعتها وجلسنا في المقعد الخلفي نتسامر.

فتحت عيناي

ذهني مشوش

أين أنا؟!

ما هذه الغرفة! كنت نائمة على سرير أجهله ماذا جرى؟ لا أذكر شيئًا، كيف وصلت إلى هنا؟

شيء أكثر غرابة أنا بلا ثياب، فقط غطاء شفاف يسترني، أنظر حولي بتوجس، بدأت نبضات قلبي تُسمع كل أوصالي أصابني الهلع، يا إلهي ما الذي حدث لي؟

حاولت أن أتذكر شيئًا؛ فكان ألم رأسي هو الجواب، حاولت النهوض لأجد الفاجعة.

أنا مقيدة اليدين والقدمين، يا إلهي ساعدني يا إلهي، أنت وليي ونصيري، لا تكلني لعدو يتجهمني استرني يا الله.

أمضيت الساعات في تلك الغرفة البائسة وحيدةً مقيدةً لا حول لي ولا قوة، تساءلت ماذا يريد مَنْ جلبني هنا، ربما يريدون فدية من أبي، أو لا لا إلا عذريتي، يا رب ساعدني.

نمت من فرط الأعياء والتفكير، وكأنني تناولت مخدرًا جعلني لا أقدر على الحركة، وعندما استيقظت مرة أخرى؛ كان شاب يجلس بقربي ينظر إلى يتلمس جسدي؛ ذعرت وصرخت بوجهه: ابتعد عني نذل حقير ماذا تريد مني؟

رد ببرود: أريدك يا جميلة آه كم أنتِ ساحرة الجمال، وناعمة البشرة وشفتاك كالتوت أشتهي تذوقه.

صرخت: أخرس. فلتخرس لا تكمل لست ممن تعتقد، لست عاهرةً أو ماجنةً، ابتعد عني لا تلمسني لماذا تفعل هذا بي، أليس لديك أخوات أو أم، ألست رجلًا؟

كان لا يسمعني قد انطفأ عقله لرؤية جسدي الغض، أصبح كالذئب المتوحش أمام فريسته.

ناجيت ربي: يا رب بحق محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ أحب الخلق إليك انجدني.

بدأت أدفع يديَّ بقوة لأفك وثاقي، وبكل ما أوتيت من قوة استطعت تحرير يدي اليمنى.

بات قريبًا لدرجة أن شفتيه لا مست شفتاي، وارتمى بصدره عليَّ، وهنا أتتني العزيمة بصفعه على وجهه، وكاد صوت الصفعة يصم أذني.

نهض، رمقني بنظرة غريبة، لم يكن غضبًا ولا توحشًا، مجرد سفر ببصره لعالم أخر.

عقد وثاقي ثم أدار لي ظهره وغادر، وأطبق الباب وراءه.

كم حمدت ربي أنه أبعد شر هذا الشيطان عني، كم فرحت لمعرفة أن الله لن يخذلني وسيجيب مناجاتي له.

بعد ساعات أطعمني بيده، وهو يتحاشى أن تتلاقى عيناه بعيني، رفع الغطاء وستر صدري وذراعي، كنت أريد الكلام، الصراخ، لكنه وضع أنامله على شفتي وقال: ولا كلمة رأسي تؤلمني فلتصمتي.

خرج وقد كانت أحشائي تتمزق، وتكاد أعصابي تحترق، وروحي تنفجر، لوهلة سمعت ضجة لمشاجرة بينه وبين أحد الأصوات النسائية الخافتة.

وما هي إلا دقائق حتى دخل الغرفة كالذئب المسعور، ووجهه مرعبًا كما الشيطان.

صرخت بوجهه ابتعد.. ابتعد.. لا تلمسني. كان كالبركان أحرق أوصالي، واستباح عذريتي، أدمى جسدي وامتص نفسي حتى كسر ضلوعي، تساوى وحيوانات الغاب، شعرت بوحش مفترس ينهشني ينفث روحه الشيطانية بجسدي، ما لذي فعلته يا ألهي لتعاقبني هكذا عقاب، ما

أجرمت يومًا ولا أخطأت بحق أحدهم، فلتلطف بي، فلتمتني إلهي أرجوك، دعني أموت لا أريد العيش مع وصمة عاري، ورؤية حزن أمي وعائلتي.

أشعر أن أمي قد غشي عليها، ووالدي وأخوتي يبحثون عني كل حارة ومشفى، وتلك نعم صديقتي سعاد نعم تذكرت كل شيء، هي من سلمتني لهذا الوحش كيف هانت عليها إنسانيتها وضميرها ورمتني بأحضان هذا الحيوان الأدمي!

بعد ما حصل لي بت كالصنم، مجرد جثة هامدة لا روح فيها، فقدت رغبتي وأحلامي، هجرت النظر لما حولي، أطبقت عيناي علني أفقد البصر فأنا لا أريد لهما أن تبصرا نور الحياة، وتلمحا البشر وأفعالهم الدنيئة، لقد اخترت صمتي فلا حروف لدي؛ لأدافع عن عذريتي وكرامتي بعد الآن.

أشرقت شمس يوم جديد؛ دخل الغرفة فك وثاقي ووضع ملابسي بجانبي، وقال بخسةٍ ارتديها بسرعة ستعودين لأهلك هيا قبل أن يستيقظ الناس ويروكِ.

لم أعِ جيدًا ما يقول، وددت قتله لكن كيف ليدي اللتان تعودتا على زراعة الورود وتشذيب الأرض، ورعاية الياسمين أن تُملأ بدماء قذرة نتنة.

وماذا سيغير قتله، هو بلا أخلاق وعديم الإنسانية، وأنا فقدت أغلى ما أملك، وقضى على كل أمنياتي بالحياة، وحده الله يعلم عبء ما أشعر، وحده ملجئي ومنفاي، ولا يرضى بظلمي وقهر عمري، وكما أنني أؤمن به سأصبر على ما سيكون من أهلي وعزوتي، فلينتقم منك الله يا أحقر من رأت عيناي.

أوصلني بسيارته لرأس حارتنا، وعند خروجي من السيارة قال لي: ألا تودين قتلي أو الانتقام، ما بالك أنت غريبة الأطوار!

وبنظرة حزينة ومقهورة قلت له: الله سينتقم لي منك فهو معيني الوحيد.

مضيت لبيتي

طرقت الباب، فتحت لي أمي، وبدت كأن سنة لم أراها، رميت نفسي لحضنها ورُحت باكية منهارة حتى فقدت وعيي.

عندما استيقظت رويت لأمي كل ما حصل معي، فصمتت واغرورقت عيناها بالدموع، وقالت: يا لله ما أصعب محنتك يا ابنتي، اللهم تلطف بنا وانصر عبدك وانتقم من الذي أذى ابنتي الرقيقة.

وهنا دخل والدي وأخوتي وسمعوها، وعلموا بانتهاك عذريتي؛ فهجم عليَّ أخي وأراد قتلي؛ لغيابي عن البيت والعار الذي ألحقته بهم.

شرع حازم بسكين ليخلص علي، ويجتث عاري.

ووقف حسام يشتاط غيظًا وحنقًا، ويبعد أمي من أمامه، وللحظة سقط والدي مغشيًا عليه من هول مصيري.

أجلسوه وأحضروا له دواء القلب، فهدأ قليلًا وتحسنت حاله، وقالت أمي لأخوتي إن ابنتي طاهرة عفيفة، وربيتها وأحسنت تنشئتها، أما ما حدث معها فهو إرادة الله وحده، ولا اعتراض على حكمه..

انتهى الموضوع عند كلمات أمي، ولم يعد أخوتي يكلمونني، ووالدي بات يتحاشى النظر إلى.

لكن لا يهم لم يعد يهمني، يا ليتهم قتلوني، وأراحوا قلبي من وجع ذكراي الأليمة، وإحساس القهر والظلم من البشر المتوحشة..

بعد أشهر من الصمت المرير ومحاولات أمي اليائسة؛ لأعود لدراستي وحياتي؛ تقدم عريس لخطبتي، قال لي والدي: أنه شخص صالح يرعى أمه المريضة، ويقوم على رعايتها ويعمل الآن في شركتي.

قلت: أرجوك أبي كيف أتزوج وأنا بلا عذرية، لا ترمِ بي لهلاكي، أمقت الرجال ومحال أن أتقبل وجود أحدهم في حياتي.

رد بعصبية: ستتزوجين رغمًا عنك، احمدي ربك أنه يريدك، وقرر الزواج منك، بعدما زعزعتي سمعتي بين الناس.

أجبته: حسنًا فلتقتلني لن أتزوج أبدا ما حييت.

ردت أمي: سيأتي اليوم وعائلته، وعليك الموافقة، هذا أفضل بنيتي، هذا المجتمع لا يرحم فلتصبري ولتحتسبي أمرك لله.

كما تريدون لن أراه، أنا موافقة لكن لن أراه.

رد أبي: حسنًا أمه مريضة وسيأتي مع عمه؛ وسنتفق على موعد العرس أخر الشهر.

اليوم عرسي المشهود؛ لبست الفستان الأبيض، وكان بنظري كثوب العزاء، وعائلتي تودعني وكأنني سأدفن اليوم وأخلصهم من إثمي.

فرح حازم ووالدي؛ وأسقطوا عنهم عار العائلة الكريمة، ولأول مرة بعد مشكلتي، قبل جبيني حازم وقال لي: أنا أسف لما جرى لكِ، وأعتذر منكِ من تصرفاتي صغيرتي.

استغربت حديثه ومشاركته زفتي لعريسي، وكأنه يحمل نفسه سبب ظلمي.

دخلت منزلي الجديد، وبقربي عريسي المدعي جهاد.

وفي ليلة حالكة الظلمة خانقة النسمات، جاثمة كالحجر على صدري، رأيته أنه هو، هو من أغتصب حيائي وبكارتي..

صرخت بوجهه: حقير تافه أما كفاك فعلتك المشينة..

ماذا تريد مني؟!! إياك أن تمسني لن أغفر لك أبدًا.

أمسكني وأنا ارتجف وتكاد انفاسي تنقطع، أهدئي، أهدئي لن أؤذيكِ لا تخافي مني.

بصعوبة بالغة أفلت جسدي من قبضته، وجلست بالأرض وحيدة شريدة، ضممت جسدي المرتجف بثوبي الأبيض وشعري الذي غطى وجهي بين ركبتي، جلس مقابلًا لي على الأرض وبدأ كلامه: أنا جد أسف لما فعلته، أعترف أني لا أفرق عن وحوش الغابة، ولا أمت للإنسانية بصلة، لقد أغرتني صديقتك بالمال، وقد كنت بحاجة له لعملية أمي.

كانت صديقتك سعاد مَنْ جلبكِ إلى، لأخطف منك عذريتك، ولأخلاقي الدنيئة وطمعي بالمال طاوعتها.

وبعد الذي جرى معنا كانت أخر كلماتك لي كالصاعقة، تدوّي بأوصالي وتعذب روحي، لقد هزتني كلماتك لدرجة أنك لم تفارقي يومًا مخيلتي، وكنتِ سبب هدايتي ومحاولتي لإصلاح ما أفسدته معك، والسبب الرئيسي أن والدتي ببري لها ودعائها لي بالهداية فهداني؛ لأنقي روحي وأتوب له توبة نصوحة.

أرجوكِ سامحيني، وإن لم تستطيعي سيكون هذا البيت لك، وأنا بمثابة شبيه زوج لك، ولك حرية التصرف بما تريدينه.

فجأة أحدهم يطرق بشدة على الباب، وإذا به أخي حازم يمسك بزوجي ويريد خنقه، ويصرخ حقير تافه سأقتلك، لم طاوعت تلك السافلة واغتصبت أختي؟!!

يزداد عجبي وحيرتي: أهو أنت سبب دماري؟!! أنت من انتقمت منه تلك المخادعة في شخصي.

هيا أترك زوجي هو على الأقل أشرف منك، عرف غلطته وحاول إصلاحها، أخرج لا أريد رؤيتك، خذ جبروتك وظلمك عني، ما عدت أستطيع النظر إليك.

دفعه زوجي نحو الباب، وهو ينظر بعينيه النازفة بدل الدمع دمًا، على ظلم بظلم أكبر وظالم لظالم يظنه أنه سيكون من الله أكبر.

تمت